حال لا يكون له سلطان الحكم المباشر ، وإنمـا يتولى ولا يحكم ليكون مظهراً من مظاهر هيبة الدولة ومجادتها ، شـأنه فى ذلك شأن الملك فى إنجلترا أو رئيس الجمهورية فى فرنسا

ومعنى هذا أننا لا نريد نظام رياسـة الدولة على النحو المتبع فى إسبانيا أو فى روسـيا أو فى يوغسلافيا ، فنحن لا نبغيها دكتاتورية فاشية أو دكتاتورية شيوعية ، بل نريد نظاماً مستقراً ثابتاً يجنبنا الهزات الانتخابيه المترادفة ويحفظ كيان الدولة وهيبتها

وبعد فهذا رأى شخصى بحت أطالع به قراء « الرسـالة » وعلى الكاتب وحده تقع تبعته . وإنا لنجد له مشابه فى صـدر الدولة الإسلامية ، كما نجـد له نظائر فى بعض الدول الأوربية الحديثة . وإنا لنعلم أن المسئولين ما برحوا يبحثون نظام الحـكم المصرى فى المستقبل القريب والبعيـد ، ولا ريب فى أنهم سوف يحملون الآراء المتضاربة جميعا فى موضع الاهتمام والنظر

والله ولى التوفيق

منصور جاب الله

من سير الخالدين

حيـــــاة المازنى

للأستاذ محمد محمود حمدان

« قد شبعت من الطوق جدا . ولكنى ما زلت أمت إلى طفولتى بسبب قوى ، وما انفكت أخراى معقودة بأولاهـا » « المازنى »

— ٥ —

الكهولة الطفلة

كانت سنوات الشباب فى حياة المـازنى فترة تجربة نفسية امتحن بها . ولقد طالت به هذه التجربة وخلفت نتائجها فى كيانه وسريرته ، وكان لها أثرها البعيد فيما عدل إليه من أسلوب الحياة ونهج التفكير

بدأت هذه التجربة النفسية مع مطلع الحرب الكبرى ، حين أصيب المازنى بعرج فى إحدى ساقيه ؛ « وما كنت سـكران ولا وقعت من سطح ولا زلت بى قـدم ، ولا شئ غير هذا ممـا يكسر العظام . ولكنها كانت زوجتى مريضة فأجريت لها عملية جراحية . وفى صباح اليوم التالى وقفت إلى سريرها وفى يمنـاى الدواء ممزوجا بالماء فى كوب من الزجاج ، وحاولت أن أرفعهـا بيسراى ، وكان السرير عاليا وأنا قصير القامـة فشببت فسمعت شيئا يطق فظننت الكوب قد انكسر ، وتلفت أنظر فإذا هو فى كفى سليم ، فحاولت أن أدور على قدمى لأرى فإذا بساق اليمنى تخذلنى ولا تحملنى فعلمت أن الصوت منهـا ، ثم تبينت بعد ذلك أن حق الحرقفة هو الذى انكسر ، وعولجت ثلاثة شهور ، ولـكن العلاج كان فيه بعض الخطأ فانحرفت عظمة الساق عن استقامتها فقصرت عن أختها فكان هذا العرج »

عند ذلك تغيرت الدنيا فى عينيه ، وأدركته الشيخوخـة فى عنفوان شبابه ، وغمرته — كما يقول — مرارة كان يخيل إليه أنه يحسها على لسانه ، وتملكته السوداء والتشاؤم «البسمزم Pessim sm» وأصيب من جراء ذلك بالنيراستينيا . ولقد كانت هذه الحـادثة أقسى ما يمكن أن يمتحن به معدن شاب مستوفز نزعات الإحساس ، متعدد آفاق النفس ؛ يستقبل الحياة بذخيرة من أحلام المجد والسعادة فتستقبله بطعنة نجـلاء من طعنات المحنة والبلاء . فلا جرم ينطوى المازنى على نفسه يعاقر الألم ويستمرئ الحرمان ، صادفا عن الدنيا والناس ومناعم الحياة . ولقد ظل سنوات يجاهد العقدة النفسية التى طرأت عليه من هذا العرج ويعالجها بالتهوين والتخفيف ، ولـكن الحادثة كانت لا تفتأ تعاوده بذكراها الأليمة أو ذكراها المتجددة وهى بضعة منه لا تفارقه ، فلا يفيد معهـا التهوين والتخفيف

ثم كان مدى تلك التجربة ، أو تلك المحنة ، بعد أن وضعت الحرب أوزارهـا ، حين عن له أن يترك التعليم ويلقى بنفسـه إلى معترك الصحافة

أغلق المدرسة التى كان يديرها ، قبل أن تتصل أسبابه بالعمل الدائم فى الصحف ، وجاءت حوادث الثورة الوطنيـة وما قام فى أعقابها من الاضطراب وعدم الاستقرار فتركته فترة بغير عمل . وكانت النيراستينيا كأحد ما تكون . وأحس أنه خليق أن يفقد أعصابه وتلح عليه وطأة المرض إذا لم يركن إلى الراحة والاستجمام.

وعجانبة التفكير ، فسافر إلى الإسكندرية ، وفي مأموله أن يوفق بعد ذلك إلى عمل هناك

ويقول المازني « لم أكد أستقر في الإسكندرية حتى شعرت بحمى عصبية ، ثم اتفق أن وجدت مع صديق لي رواية روسية مترجمة إلى الإنجليزية فسألته عنها فأثنى عليها ، ولم أكن قد سمعت قبل ذلك باسم المؤلف فاشتهيت أن أقرأها واستعرتها منه . وكانت وصية الأطباء لي ألا أكد خاطري أو أتعب رأسي بالقراءة أو الكتابة

« قرأت هذه الرواية فلم أكد أفرغ منها حتى رأيتني قد انقلبت مخلوقا آخر : أعدتني روح بطلها بقوتها وبجرأتها على الحياة ، وبالبساطة في مواجهة ما يقع له فيها ، وباستقامة النظرة وسداد الاتجاه ، فشفيت واستغنيت عن الأطباء والعقاقير ، وما لبثت أن كررت إلى ميدان العمل وبي من النشاط والثقة ما يكفي فيلقا بأسره »

تلك هي قصة سانين « sanine » لمؤلفها الروسي ميخائيل أرتزيباشيف (1) . وقد نقلها المازني إلى العربية ونشرها باسم « ابن الطبيعة » (١٩٢٢) أداء لمالها من دين عليه

ومن قراءات المازني في الأدب الروسي في ذلك الحين إلى جانب سانين ، قصة إيفان تورجنيف المشهورة « الآباء والأبناء fathers and children » وهي من أندر القصص في بابها وأصدقها تصويرا للطبيعة الروسية في بعض جوانبها ، وقد أصبح اسم بطلها بازاروف « Bazarov » علما على المذهب الفكري والسياسي الذي ابتدعه تورجنيف ودعاه باسم النهلزم « nihilism » بمعنى الفوضوية أو العدمية

ويذكر الأستاذ العقاد ما كان لقصة سانين من الإيحاء والتأثير في نفس المازني فيقول « لست أنسى هزة وجدانه بأفاعيل سانين مع إنكاره لتلك الحيوانية اللجوج التي مثله بها مؤلف القصة .. وأنه كان يردد بعض « لوازم » سانين في كلامه بعد قراءتها . ويقول العقاد « إن القصة الروسية من أقوى المؤثرات في نزعته التي جنح إليها بقوته كلها فيما نسميه بفلسفة الحياة »

والحق أن المازني كان أقرب ما يكون إلى خصائص أبطال القصة الروسية ، من طراز سانين وبازاروف ، الذين يواجهون الحياة بالاستخفاف وقلة المبالاة ، ويؤمنون بالقدرية ويعولون على مفاجآت الغيب وحساب المجهول ، ويجمعون بين نقائض الطبائع الإنسانية ، فلا يزالون أبدا مترددين بين الروحانية والجسدية ، وبين الزهادة والطموح ، وبين الكلبية (2) المتهافتة والغرارة الساذجة . وقد عصمت المازني بيئته المحافظة ونشأته الدينية من أن يتأثر بالناحية الدنيا في تلك الخصائص الروسية ، ووسعه أن يأخذ عنها أشبه تلك الخصائص به وأقربها إلى طبعه ومنحاه ، وهي نزعة الاستخفاف وقلة المبالاة . فكانت هذه النزعة بعد سلاحه في مواجهة ما تأزمت به نفسه من أحداث تلك التجربة ، وبقيت إلى آخر أيامه سلاحه في مواجهة الحياة ، وبه غلبها ولم تغلبه

وكأن ما امتحنته به تلك التجربة — من الإصابة بالعرج ، ثم هجر التعليم والتعطل الذي أعقبه — كان من توفيقات القادر التي تنم الحكمة فيها على الإنسان قبل أن تتبدى صفحتها من مستقرها في عالم المجهول

كان المازني قد أوفى على الثلاثين ، وشب عن الطوق جدا فيما يحس ، وارتفع ، كما يقول ، « عن كل حداثة ارتفاعا أجلسني على ربوة الحياة حيث تنازع السحب الضياء » ، ووقف يستقبل الكهولة التي طرق بابها قبل أن تطرق بابه ، والتي تزود لها زادين من عمل النشأة وعمل التجربة ؛ فليس أقرب إلى الكهولة وألصق بها ممن يحرم في سنه وميعته قراه من الطفولة والشباب ، ومن يدركه بلاء التجارب وهو غر لا يفيد منها غير الجهد والعناء

وقد عرف القارئ كيف ودع المازني طفولته قسرا وقطعها وثبا ، وكيف أكره نفسه على كبح عواطفها الساذجة وكبت نزعاتها البريئة في غير رفق أو رحمة . ولا شك أنه ظل منطويا على هذا الشعور بالحرمان من أسعد فترات الحياة وأنضر عهودها حتى جر عليه هذا الانطواء أن أضاع شبابه في بيداء السلبية ومهمه التشاؤم ومقارفة العزلة والتوحد وتلقي الحياة باحتفال.

(1) ميخائيل ميخائيلوفتش أرتزيباشف mikhail mikhailovitch artsibashef ولد عام ١٨٧٨ ، وبدأ اتجاهه الفني بالرسوم الهزلية (الكاريكاتير) ثم تحول إلى كتابة القصة الواقعية الكبيرة . واتهم بالثورة وسجن عام ١٩١٢ تعد سانين أعظم أعماله القصصية وقد أخرجها وهو دون الثلاثين (١٩٠٧)

(2) cynicism

الموسوس المرور

ثم كانت تلك التجربة النفسية وما طبعته عليه من مواجهة الحياة بالاستخفاف وقلة المبالاة ، وكانت معها المعجزة الكبرى فى حياة المازنى الذى كان يشرف على الكهولة يومذاك

أشرف على الكهولة ليجد نفسه من جديد أمام طفولته التى زايلته ، تعاوده بأخص خصائصها فى طابعها القديم ، وإن تكن قد عادت ناضجة واعية أشد تمرساً بالحياة وأكثر فهما وتجربة

وليس بالعسير تفسير هذا الارتداد أو هذه الرجعة إلى الطفولة ، ولا يحوجنا الأمر فيما نرى إلى استشارة علم النفس التحليلى أو تطبيق مناهجه ومقاييسه فيما كتب علماؤه المحدثون ، فهى ظاهرة طبيعية وليست حدثاً خارقا أو شذوذاً غير مألوف

... طفل أكرهته الحياة على أن يكبت فى نفسه كل إحساس بالطفولة — على فرط إحساسه بها — وأن يطرح عنه كل ما يمت إليها من دوافع ونزعات ، فاستقرت طفولته فى أعماقه مكبوتة أو مكرهة على الكبت ، تترقب المناسبة التى تطفر فيها من قرارها وتلبس إهابها السليب

وقد سنحت هذه المناسبة المرتقبة فى حياة المازنى بتصحيح النظرة إلى الحياة والنقلة من المبالاة والاحتفال إلى الاستخفاف وقلة الاكتراث ، فعاودت طفولته ظهورها وعادت سيرتها ، ولابست بنية الكهل المجرب فيه روح الطفل الغرير

* * *

صورتان جد مختلفتين : أولاهما صورة شاب يعارض الحياة معارضة الإدلال ، ويثور عليها لأنه يباليها ويحفلها غاية المبالاة والاحتفال، ويتراءى فى إهاب أقرب إلى الشيخوخة المنطوية لولا ما يتسم به من ثورة السخط والزراية على الحياة والأحياء

والثانية صورة كهل يصدر فى مطالبه ورغائبه وفى جده وهزله عن منازع هى منازع الطفولة فى صميمها ، بل تزيدها السن فرط غرارة واندفاع وحماس .. كهل يركب الحياة بالسخرية والاستخفاف ، ويبالها غير مضطر أو مغلوب ! أو هو يتلع عن معارضتها لأنه قد ملأ يديه منها ، وكأنه يقول لها بلسان الحال إنى لا أحفلك ولا أباليك منذ الآن ، فسيان أن تلتقى على حرب أو سلام ، وعلى ود أو خصام ، فعلى هذا وذاك نحن ملتقيان !

وقد قابل المازنى بين هاتين الصورتين لذينك العهدين من حياته ، ولم يخف عن نفسه ، ولا عن الناس ، موقع هواه وموضع ميله منهما . ونحن نؤثر أن ننقل هنا معالم الصورتين كما خرجتا عنه ، مع تفسيره الذى ارتاح إليه فى تعليل رأيه ؛ فهو يقول :

« الكهولة والشباب عهدان مختلفان فى كل شئ ، ولك أن تقول إنهما يجعلان من الإنسان الواحد إنسانين متميزين ، لا يشبه أحدهما صاحبه ، لا فى المخبر ولا فى المظهر . فأنا فى كهولتى إنسان جديد من كل وجه ، لا يشبه ذلك الإنسان القديم الذى كان أيام الشباب ، فقد ذهب ذلك الإنسان إلى غير رجعة ، وذهب معه كل ما كان له من خصائص وصفات وسمات ومعارف ونزعات وآمال وآلام ومخاوف ومطامع وشهوات إلى آخر ذلك ، وحل محله هذا الكهل الذى يدلف إلى الشيخوخة

« ولك أن تقول أيضا إن الشباب والكهولة معنيان فى النفس . فإن منا من يخطئ معنى الشباب فى عهده الأول ثم يجده فى غير أوانه . وهذا ما وقع لى ، فما عرفت طعم الشباب ، ولا ركبت به ما يركب الناس به ، لأنى امتحنت فى صدر حياتى وغضونة سنى بما تركنى أحس كأن الدهر كله عمرى . ودارت الأيام وكبرت ، وازددت بالدنيا وبالناس معرفة وبنفسى أيضا ، فإذا كل شئ يتغير ، التشاؤم انقلب تفاؤلا واستبشارا ، والضغن أصبح عطفاً ورقة قلب وحبا للحياة والناس ، وكنت أظننى لن يطول عمرى وأحمد الله على هذا وأسأله فى سرى أن يعجل بالراحة الكبرى وإن كنا لن ندرى بأنا فزنا بها ، فإذا بى واثق أنى سأكون من المعمرين جدا ، وإذا بى قد صرت أحرص الناس على حياتى ، بل إذا بى أشعر شعوراً قويا أنى رددت شابا ، وإن كان رأسى قد شاب ولم يبق فيه سواد ، وأذهلنى هذا الشعور المستغرق عن سنى التى لا تكف عن الارتفاع »

وإذا كان لنا أن نعقب على هذه المقابلة الصادقة بشئ ، فهو أن ذينك العهدين ، فى حياة المازنى وأدبه ، قريب من قريب ، وأن عهد الشباب والثورة ومعارضة الحياة كعهد الكهولة الطفلة المجربة ؛ قوة إحساس وفيض عاطفة وشعور

فلم يكن المازنى الشاب ليعارض الحياة أو ينتكر لها إلا وهو